الجزء العاشر — سورة التوبة
سُورَةُ التَّوْبَةِ
بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ
إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ
شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ
مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ
فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ
وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۖ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾
وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ
كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

سورة التوبة

تركُ التسمية في السورة لا دخل للرأي فيه، إنما هو بالوحي. والحكمةُ أن السورة نزلت بالعذاب، والتسميةُ رحمةٌ، ولا تناسبَ بين الرحمة والعذاب

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ البراءةُ: قطعُ الصلة والعلاقة بين واحد وآخر أي اللَّهُ بريءٌ من عهود المشركين، ورسولُه كذلك بريء منهم ﴿فَسِيحُوا﴾ سيروا يا معشر المشركين آمنين الآن، مدة أربعة أشهر ﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ غير ناجين من عذابه بالهرب ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ إعلانٌ صريح للمشركين الناقضين للعهود ﴿بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ متبرئ من عهودهم ورسولُه بريءٌ أيضاً منها ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ لم ينقضوا عهدهم معكم، بل وفُوا به ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا﴾ لم يعينوا عليكم أحداً ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ أكملوا لهم العهد إلى انتهاء المدة ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾ انقضت أشهر العهد الأربعة ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ احبسوهم في ديارهم وحصونهم إلى أن يُسْلِموا أو يُقْتَلوا ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ اقعدوا لهم على كل طريق وممرٍّ ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ طلب جوارك وأمانك ليتعرّف على الدين فامنحه الأمان.

سبب البراءة: (سببُ البراءة أن النبي ﷺ كان قد عاهد المشركين في (صلح الحديبية) على وقف الحرب بينه وبين المشركين عشر سنين، ثم نقضوا عهودهم، فأمر الله رسولَه أن يُنهي هذه العهود، وأن يقطع هذه العلاقات فبعث الرسول (أبا بكر) ثم أتبعه (بعليّ) لينادي يوم الحج بهذه الأمور: أن لا يقرب البيت مشرك، وأن لا يطوف بالبيت عُريان، وأنه لا يدخلُ الجنةَ إلا مؤمنٌ، ومن كان بينه وبين الرسول مدة، فأجلُه إلى مدته) رواه البخاري.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ
رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا
ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ
٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا
وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَٰسِقُونَ ٨ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟
عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٩ لَا يَرْقُبُونَ
فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ١٠
فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ
فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١١ وَإِن نَّكَثُوٓا۟
أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟
أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ
١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟
بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ
أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣

﴿ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾؟ كيف تُراعي عهود المشركين مع غدرهم وخيانتهم، ونقضهم للعهود؟ ﴿ يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ ﴾ إن يظفروا بكم ﴿ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ ﴾ لا يراعوا في شأنكم ﴿ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ الإلُّ: العهدُ، أي لا يراعون فيكم عهداً، ولا أماناً، ولا قرابة ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ يتحدثون إليكم بكلام حلوٍ معسول ﴿ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ الوفاء بما عاهدوكم عليه ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ خارجون عن طاعة الله، ليس لهم عهد ولا ذمة ﴿ لَكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم ﴾ نقضوا عهودهم وخانوكم ﴿ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ بالنيل منه والسخرية بشعائره وأحكامه ﴿ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ قاتلوا قادة وزعماء الكفر والضلالة ﴿ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ ﴾ لا عهود لهم ولا مواثيق ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ ليكفُّوا عن كفرهم، ويرجعوا إلى هداية الله ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا ﴾؟ حثٌّ وتحريضٌ على قتالهم، لأنهم خائنون ناقضون لعهودهم!! ﴿ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ هم البادئون بالعدوان عليكم ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ ﴾؟ هل تهابون أعداءكم، وتخافون منهم، فتتركون قتالهم؟ فالله أحقُّ بأن تخشوا عقوبته!!

قولُه سبحانه: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ ﴾ هذه الآيةُ غايةٌ في حسن المعاملة، وكرم الأخلاق، لأن المراد ليس قتلَ الكافر، وإهراقَ دمه، بل إقناعُه وهدايتُه، حتى يعرفَ الحقَّ ويتَّبعَه، ويتركَ ما هو عليه من الكفر والضلال، وبذلك سَمَا الإسلامُ بتشريع الجهاد، أسمى غايات الفضل والكمال، وأمر بتأمين الكافر حتى يسمع كلام الله، ثم يرجع إلى وطنه.!

قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ
غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟
مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ
أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾
إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ
ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ قاتلوا المشركين أعداء الدين ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ يكون قتلكم لهم تشفياً منهم ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ يذلُّهم ويهينهم ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ يُذهب ما في قلوبكم من الغضب والوجد الشديد عليهم ﴿وَلِيجَةً﴾ بطانة من غير المسلمين، وهو الذي يطّلع على أسرارك ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بطلتْ وذهب ثوابها ﴿يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ عمارتُها على نوعين: (حسّية) وذلك بإشادتها وبنائها، و(روحية) بأداء الصلاة، والذكر، وطلب العلم فيها، وهذه أعظم من الأولى، وفي الحديث: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان» رواه الترمذي ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ لم يرهب أحداً غير الله ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الخطاب للمشركين قالوا: نحنُ أهلُ حرم الله، وسَدَنَةُ بيته العتيق، نعمر البيت، ونسقي الحجيج، فنزلت الآية رداً عليهم، إذ لا ينفع عمارةُ البيت، وسقاية الحجيج، بدون إيمان، ولا جهاد!!

سبب النزول: لمّا وقع (العباس) في الأسر، في غزوة بدر، عيّره المسلمون بالشرك، وقطيعة الرحم، وجعل (عليٌّ) يوبّخ العباسَ بقتال رسول الله ﷺ، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا، وتكتمون محاسننا؟ فقال: وهل لكم من محاسن؟ قال: نعم، إنّا لنعمرُ المسجدَ الحرامَ، ونحجبُ الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفكُّ الأسيرَ، فنزلت ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ..﴾ الآية، انظر أسباب النزول للواحدي، وتفسير ابن كثير.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ
وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ
وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن
كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ
تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ
فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ
كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ
تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ
بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا
وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ يخبرهم بما يسرُّهم على لسان رسوله ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ برحمته تعالى لهم، ورضوانه عليهم ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ حدائق وبساتين، فيها القصور والحور، مع الخلود الدائم في جنان النعيم ﴿اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ﴾ لا تتخذوهم أولياء إن فضَّلوا الكفر على الإيمان، ولو كانوا أقرب الناس إليكم، أبناءً أو إخوةً، أو آباء ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ من يفضلهم على دين الله، فهو الظالم لنفسه المستحقُّ لعذاب الله ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ أي إن كان هؤلاء الأقارب من الآباء، والأبناء، والإخوان والزوجات والعشيرة ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها وجمعتموها ﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ تجارة تخافون بَوَارها ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ منازل تعجبكم الإقامة بها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إن كانت هذه الأشياء أغلى عندكم من محبة الله ورسوله، والجهاد في سبيله ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ انتظروا عذاب الله ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ على سعتها. ﴿وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ انهزمتم أمام أعدائكم ولم تثبتوا.

قال الطبري: يخبرهم تعالى أن النصر بيده، وليس بكثرة العَدَد، وأنه ينصر القليلَ على الكثير إذا شاء، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ آل عمران (١٢٦).

سبب النزول: لمَّا أمر الرسولُ ﷺ أصحابه، بالهجرة إلى المدينة المنورة، فمنهم من كان يُسرع إليها امتثالاً لأمر الرسول ﷺ، وبترك الأهل والعشيرة والمال، ومنهم من كانت تتعلق به زوجتُه وولدُه، ويقولون له: لا تتركنا وحدنا فنضيع، فيرقُّ قلبه فيجلس معهم، ويترك الهجرة في سبيل الله، فنزلت الآية ﴿إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ تتوعَّد المتثاقلين عن الجهاد بعذاب أليم.

﴿ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ هذا على التشبيه أي هم بمنزلة القذر والنَّجس، لخُبْثِ باطنهم، وُصفوا بالنَّجس للمبالغة، كأنهم عينُ النجاسة، وروي عن بعض السلف: من صافح مشركاً فليتوضأ، والجمهور أنه على التشبيه ﴿خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ فقراً وفاقةً بسبب منعهم من دخول مكة، أو منعهم من الحج ﴿يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ يدفعوا مبلغاً من المال مقابل حمايتهم وأمنهم، وهو مبلغ يسير (٤٨) درهم في السنة عن كل شخص، والعاجز لا يؤخذ منه شيء ﴿عَن يَدٍ﴾ عن انقيادٍ واستسلام ﴿صَٰغِرُونَ﴾ أذلاء مقهورون بسلطان الإسلام، وعزة المسلمين، وهذا خاصٌّ بأهل الذمة من اليهود والنصارى ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ يشابهون في الكفر والشناعة قول الكفار ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يُصرفون عن الهدى إلى الضلال ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ علماء اليهود ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ علماء النصارى، اليهودُ جعلوا عُزَيراً ابن الله، والنصارى جعلوا المسيحَ ابن الله، وهذه مقالة شنيعة، نزَّه تعالى نفسه عنها، كما أنها مقالةُ المشركين عبدةِ الأوثان، حيث قالوا: (الملائكةُ بناتُ الله) ﴿قَٰتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أهلكهم شر الهلاك كيف يُصرفون عن الحقِّ إلى الباطل!؟

توضيحٌ وبيان: رُوي عن (عديِّ بن حاتم) قال: أتيتُ رسول الله ﷺ، وفي عنقي صليبٌ من ذهب، فقال يا عديُّ: "**اطرحْ عنك هذا الوثن**"!! وسمعته يقرأ ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا..﴾ الآية، فقلت: يا رسول الله، لم يكونوا يعبدونهم!! فقال: "**أليس يُحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه؟ ويُحِلُّون ما حرَّمه الله فتستحلونه؟**" فقلتُ: بلى، قال: "**فذاك عبادتُهم**" رواه الترمذي.

الجزء العاشر
سورة التوبة
يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ
أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ
كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ
أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ
وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ
عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ
تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ
شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ
أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا
يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

﴿يُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ﴾ دين الإسلام، فإن الإسلام بنوره المضيء، وحججه الساطعة، يشبه نور الشمس الوهاج، مثّل لهم بمن ينفخ بفمه الصغير الحقير على الشمس، ليذهب نورها ويطمس ضياءها، وهيهات!! ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ يعلي دين الإسلام على سائر الأديان، ﴿الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ علماء اليهود والنصارى، والمراد من الآية: التحذير من علماء السوء ﴿يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ يدّخرون الأموال، ولا يبذلون منها ما فرض الله عليهم من الزكاة ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ﴾ البشارة تكون بالخير، واستعمالها بالشرّ للسخرية والتهكم ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ تُحرق بها وجوههم وأطرافهم وظهورهم، وتخصيصها بالذكر لأن البخيلَ يرى الفقير، فيقطّب جبهته ويُعرض عنه، فإذا طالبه بالعون ولّاه ظهره، فعوقب بالكيّ في هذه الأعضاء ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ هي: (رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم) سميت حُرُماً لأنها معظّمة يحرم فيها القتال.

تمثيل رائع: من روائع التمثيل القرآني، ما صوّر القرآن الكريم أعداء الإسلام، أمام النور الإلهي، فقد صوّر الإسلامَ بالشمس الساطعة بنورها الوهّاج، ومثّل للعدوّ بإنسان أحمق، ينفخُ على الشمس بفمه الصغير الحقير، ليطفئ نورها، ويُذهبَ ضياءها، وهيهات أن يعكّر نورَها أهلُ الأرض جميعاً، فكيف بهذا الأحمق السفيه، الذي ينفخ عليها بفمه ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ..﴾ ويا له من تمثيل رائع بديع!!

الجزء العاشر سورة التوبة
إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ
فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ
فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾
إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ
يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ
ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ
وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾ تأخير حرمة شهر لشهر آخر ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ لأن فيه تحريم ما أحلّه الله، وتحليلَ ما حرّمه، فهو كفر آخر زيادة على كفرهم بالله ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا﴾ يحلُّون الشهر المحرَّم في بعض السنين، ويُحَرِّمون شهراً آخر مكانه ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟﴾ ليوافقوا عدد الأشهر الأربعة.. وسبب هذا أنهم كانوا أصحاب غارات، فإذا جاء الشهر الحرام وهم في قتال، شقّ عليهم ترك الحرب، فيستقرضون حرمة شهر مكان شهر، وهذا تلاعبٌ في دين الله ﴿زُيِّنَ لَهُمْ﴾ زيَّن لهم الشيطان هذا العمل القبيح ﴿أَعْمَـٰلِهِمْ﴾ اخرجوا غُزاة في سبيل الله ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ تباطأتم ولم تُسرعوا، وملتم إلى نعيم الدنيا وشهواتها؟ ﴿أَرَضِيتُم﴾؟ هل آثرتم الدنيا الفانية على الآخرة الباقية؟ ﴿فِى ٱلْغَارِ﴾ غار ثور ﴿لِصَـٰحِبِهِۦ﴾ أبي بكر الصدّيق ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ كلمة التوحيد ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ﴾ بالملائكة الأبرار ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كلمة الشرك جعلَها سافلةً حقيرة دنيئة ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ كلمةُ التوحيد (لا إله إلا الله) هي العالية السامية، الظاهرة على كل الأديان.

سبب النزول: روى الطبري عن أنس أن (أبا بكر) رضي الله عنه قال: (بينا أنا مع رسول الله ﷺ في الغار، وأقدامُ المشركين فوق رؤوسنا، فقلتُ: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصَرَنا!! فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين، الله ثالثهما)؟ وأنزل الله ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ رواه البخاري.

انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾
لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ
عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا
مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾
عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ
صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ
فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ
لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم
مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ
ٱلْفِتْنَةَ ۖ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ اخرجوا للجهاد في جميع الظروف والأحوال: في اليسر والعسر، شيباً وشباباً ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ لو كان ما دُعوا إليه غُنماً قريباً سهل المنال ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ سفراً قريباً ليس ببعيد ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ خرجوا معك من أجل المغنم ﴿ٱلشُّقَّةُ﴾ بعُدَت عليهم المسافة ولذلك اعتذروا عن الخروج ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ سامحك الله يا محمد، لماذا أذنت لهم؟ وهذا تلطفٌ في العتاب، حيث قدَّم العفو على العتاب ﴿يَتَبَيَّنَ لَكَ﴾ حتى يظهر لك حالُهم وتعلم الصادق من الكاذب ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شكَّت قلوبهم في دين الله ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ يتردَّدون حيارى لا يدرون ما يصنعون ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ كره خروجهم معكم للجهاد، لأنهم ليسوا أهلاً لهذا الشرف ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ حبسهم بالتقاعس عن الخروج ﴿خَبَالًا﴾ شراً وفساداً ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ أسرعوا بينكم بالنميمة وإفساد ذات البين، **نزلت في المنافقين** الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، ولم يخرجوا مع رسول الله ﷺ، وجاءوا يعتذرون بالأعذار الكاذبة، يقولون: لو قدرنا على الخروج معكم لما تأخرنا!! والله يعلم أنهم كاذبون في هذا الكلام، لأنهم كانوا مستطيعين ولم يخرجوا، وقد حصل ما أخبر عنه القرآنُ، فكان في ذلك أعظم البرهان، على صدق رسالة محمد ﷺ ﴿ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ مع النساء، والصبيان، والعجزة من أهل الأعذار، وهذا منتهى الذم والتقبيح لهم، على حدّ قول القائل:

دَعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغْيَتِها ... واقعد فإنك أنت الطاعمُ الكاسي

لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ
جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ
سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟
وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ
ٱللَّهُ لَنَا ۚ هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ
نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ
أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ
أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ
قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ
إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

﴿ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ طلبوا لك الشرَّ ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ دبَّروا لك المكايدَ والحِيلَ، لتفريق أصحابك ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ جاء نصرُ الله، وظهر دينُ الإسلام ﴿ٱئْذَن لِّى﴾ في القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ ولا توقعني في الفتنة، نزلت في أحد كبار المنافقين «الجدّ بن قيس» دعاه رسولُ الله ﷺ إلى الخروج إلى تبوك فقال: يا رسول الله، ائذن لي في القعود عن الجهاد، ولا تفتِّني بالنساء، فإني أخشى إن رأيتُ نساء الروم أن لا أصبر عنهن!! ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ لقد سقطوا في عين الفتنة بتركهم الجهاد، وأيُّ فتنةٍ أعظم من تردِّيهم في دركات الجحيم!! ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ هل تنتظرون بنا يا معشر المنافقين ﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ إحدى العاقبتين الحميدتين: النصر، أو الشهادة؟ ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ انتظروا ما يحلُّ بكم ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أنفقوا طائعين أو مكرهين، فمهما أنفقتم فلن يتقبَّل الله منكم لنفاقكم.

سبب النزول: نزلت هذه الآية ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ . .﴾ في أحد كبار المنافقين (الجدّ بن قيس) قال للنبي ﷺ، لمَّا دعاه لقتال بني الأصفر ـ يعني الروم ـ قال: يا رسول الله، ائذنْ لي ولا تفتِنِّي، فقد عرفَ قومي شدة حبِّي للنساء، وإني أخشى إن رأيت نساء أهلِ الروم أن لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وتركه، وقال: «قد أذنتُ لكَ» رواه الطبراني، وبذلك انفضح أمر المنافقين.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾
وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ
قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ
أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ
فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا
هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ
وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ
لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ
وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ
فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ
ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ
لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ لا تستحسن ما عليه الكفار من سعة المال، فظاهرُها نعمة وباطنُها نقمة ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ هي شقاءٌ ووبالٌ عليهم، يتعبون في جمعها، ثم يهلكون بها، وليس أدلّ على ذلك، من أن هذه المخترعات الجهنمية، والأسلحة الفتاكة التي اخترعوها حصدت منهم ما يزيد على أربعين مليوناً في الحرب العالمية الثانية، فقد أهلكهم الله بأيديهم وبما جمعوا وملكوا!! ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ ويموتوا كافرين ﴿يَفْرَقُونَ﴾ يخافون منكم أشدَّ الخوف ﴿مَلْجَـًٔا﴾ حصناً يلجأون إليه ﴿مَغَٰرَٰتٍ﴾ سراديب يختفون فيها منكم ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ موضعاً يدخلونه ولو كان ضيّقاً ﴿يَجْمَحُونَ﴾ أسرعوا نحوه إسراعاً كالدابة الجموح، لشدة بغضهم لكم ﴿يَلْمِزُكَ﴾ يعيبك في قسمة الصدقات ويطعن فيك ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ المدينين ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ يسمع كلَّ ما يُقال له ويصدِّقه، وهو رميٌ له عليه الصلاةُ والسلام بالبَلَه والغفلة، وما أقبحه وأشنعه من كلام في حقّ خير الأنام!!

سبب النزول: كان جماعةٌ من المنافقين، يؤذون رسول الله ﷺ ويقولون فيه ما لا ينبغي، فقال بعضهم: لا تفعلوا فإنَّا نخشى أن يبلغه الأمر، فينتقم له أصحابه منا!! فقال رئيسهم في النفاق واسمه (الجلّاس): نقول فيه ما شئنا، ثم نأتيه فنقول ما يرضيه فيصدّقنا، فإنما محمد أذنٌ سامعة، يصدِّق كل أحد، فنزلت الآية ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ رواه ابن أبي حاتم، وإنما قالوه لأنه ﷺ ما كان يواجه أحداً بما يكره، ويتغاضى عنهم حلماً وكرماً.!

﴿يُحَادِدِ اللَّهَ﴾ ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنه من يعصي أمر الله، وأمر رسوله، ويعادي دينه ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ فقد استحق دخول نار الجحيم ﴿الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ الذلُّ الكبير والشقاءُ والهوانُ ﴿تَحْذَرُونَ﴾ تخفونه من الخُبث والنفاق ﴿نَخُوضُ﴾ نتلهّى بالحديث لنقطع الطريق في سفرنا ﴿تَسْتَهْزِءُونَ﴾ أتهزؤون وتسخرون بدين الله وكتابه ورسوله؟ روي أن المنافقين قالوا في ما بينهم: انظروا إلى محمد يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهاتَ هيهاتَ، يسخرون ويهزؤون، فأطلع الله رسوله على ذلك، فقالوا: والله ما كنا جادّين، إنما كنا نمزح ونلعب، فنزلت ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ لا تعتذروا بأيمانكم الكاذبة، فقد انسلختم عن الإيمان ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ يبخلون عن الإنفاق ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ تركوا طاعة الله وذكره، فتركهم من رحمته وفضله، ولا يُراد به حقيقة النسيان، لأن الله لا ينسى ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾.

سبب النزول: قال الطبري: بينا النبيُّ ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك لحرب الروم، كان بين يديه ناس من المنافقين، يقولون: انظروا إلى هذا الرجل - يريدون النبي ﷺ - يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهاتَ هيهاتَ أن يكون له ذلك!! فأطلع الله نبيَّه على مقالتهم، فدعاهم فقال لهم: قلتم: كذا وكذا، وأخبرهم بما قالوا، فقالوا يا نبيّ الله: إنما كنا نخوض ونلعب!! فنزلت الآية ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾!؟ أخرجه ابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم.

كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ
أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ
كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ
كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ
نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ
إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾
وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ
وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ تمتّعوا بنصيبهم من الدنيا ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ استمتعتم بملاذّ الدنيا وشهواتها، كما استمتع أولئك بنصيبهم منها ﴿وَخُضْتُمْ﴾ وقعتم في الباطل والضلال كما خاضوا فيه، فشابهتموهم في الكفر ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ضاعت وبطلت أعمالهم ﴿نَبَأُ﴾ خبر الأمم السابقين الذين عصوا رسلهم؟ ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ الذين أغرقوا بالطوفان ﴿وَعَادٍ﴾ أهلكوا بالريح العاتية ﴿وَثَمُودَ﴾ أهلكوا بالرجفة ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ قوم لوط الذين انقلبت بهم ديارهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الواضحات فكذّبوهم فأهلكهم الله ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ هم إخوة في الدين، يتعاونون وينتاصرون ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ هؤلاء يستحقون رحمة الله ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ في قصور وحدائق يطيب فيها العيش، مع الإقامة الدائمة الخالدة، ومعنى ﴿عَدْنٍ﴾ إقامة، وفي الحديث «خلق الله جنة عدن بيده، ودلّى فيها ثمارها، وشقّ أنهارها، وقال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فقال: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل» رواه الطبراني.

تنبيه: قابَلَ تعالى بين أوصاف المؤمنين، وأوصاف المنافقين، فالمنافق يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، ولا يقوم إلى الصلاة إلّا بكسل، ويبخل بالإنفاق، وإذا أمر بالجهاد يتخلّف، ويُثبّط غيره عن الخروج، والمؤمنُ بضدّ ذلك، يأمر بالمعروف، ويؤدي الصلاة على أكمل الوجوه، ويؤتي الزكاة، ويسارع في طاعة الله، وهي مقابلة لطيفة، كما قابل بين جزائهما بالنار والجنة.

﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ جاهد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ شدّد على الفريقين بالكلام، ليشعروا بقوّة الإسلام ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مسكنهم وموطن إقامتهم نار جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ بئس المكان جهنم ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ نزلت في ابن سلول رئيس المنافقين، قال عدوُّ الله: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ فنقلها رجل من المسلمين إلى الرسول ﷺ فأرسل إليه فجعل يحلف بالله ما قال ذلك ﴿كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ قالوا: ما بلغك عنهم يا محمد ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أظهروا الكفر بعد اعتناقهم للإسلام ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ من الغدر برسول الله ﷺ حين رجع من تبوك ﴿مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ نزلت في أحد المنافقين، طلب من رسول الله أن يدعو الله له بسعة الرزق، وعاهد الله أن ينفق ويتصدّق، فدعا له، فلمّا رزقه الله بخل ومنع الزكاة ﴿يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ يعيبونهم في الإنفاق، فإن جاء أحدهم بالقليل عابوه بالبخل، وإن جاء بالكثير قالوا: إنه مراءٍ.

سبب النزول: جاء رجل من المنافقين إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ادعُ اللهَ أن يرزقني مالاً، فقال: ويحكَ قليلٌ تؤدي شكره، خيرٌ من كثير لا تُطيقُه!! فقال: والذي بعثكَ بالحقِّ لئن رزقني اللهُ مالاً، لأتصدقنَّ ولأعطينَّ كلَّ ذي حقّ حقَّه، فدعا له فاتخذ غنماً، ونمت كما ينمو الدودُ، وبقيت تنمو وتكثر حتى ضاقت به المدينة، فخرج بها إلى البادية، ثم تخلَّف عن صلاة الجمعة والجماعة، ومنع الزكاة، وفيه نزلت ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ الآية تفسير ابن كثير ورواه البيهقي.

٨٠ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً
فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ٨١ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ
أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ٨٢ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا
جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ٨٣ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ
مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن
تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟
مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ٨٤ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ
عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ
٨٥ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ٨٥ وَإِذَآ
أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ
أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ٨٦

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ اطلب لهم المغفرة من الله ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لا تطلبها فلن يغفر الله لهم ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ هذا تصوير لاستحالة المغفرة، والمراد من السبعين: التكثير، أي مهما استغفرت لهم فلن ينفعهم استغفارك ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ فرح المنافقون المتخلفون عن غزوة تبوك ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ فرحوا بقعودهم عن الخروج، مخالفةً لأمر الرسول ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ لا تخرجوا إلى الجهاد في فصل الصيف الحارّ ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ قل لهم: إن نار جهنم التي تصيرون إليها، أشدُّ من هذا الحر ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ أي فسيضحكون قليلاً، وسيبكون كثيراً، حين يلقون جزاءهم ﴿الْخَالِفِينَ﴾ المتخلفين عن الخروج، من النساء، والصبيان، والعجزة، وهذا تقبيح لهم شنيع

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ لا تصلِّ على أحد من المنافقين، ولا تشهد دفنه عند موته ﴿أُولُو الطَّوْلِ﴾ أصحاب الغنى والسعة من المنافقين.

سبب النزول: روى البخاري (أن (ابن سَلول) لمَّا تُوفي، جاء ابنُه (عبد الله) إلى الرسول ﷺ - وكان مؤمناً صالحاً - فسأله أن يعطيه قميصه، ليكفِّن به أباه، فأعطاه إيَّاه، ثم سأله أن يصلِّي عليه، فقال عمر: يا رسول الله، تصلِّي عليه وهو منافق؟ فقال له الرسول: إن الله خيَّرني فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فصلَّى عليه) رواه البخاري، وزاد الترمذي (قال عمر: فعجبتُ من جرأتي على رسول الله ﷺ، فوالله ما كان يسيراً حتى نزلت الآيتان ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ فما صلَّى رسول الله ﷺ بعد ذلك على منافق، ولا قام على قبره).

رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ
ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ
مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾
وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ
مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ
حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى
ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟
مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

﴿ٱلْخَوَالِفِ﴾ رضوا بأن يكونوا مع النساء المتخلفات، ومع المرضى والعجزة والصبيان ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ خُتم عليها فلا يعقلون ولا يفهمون ﴿لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ أمّا المؤمنون المجاهدون فلهم جميع ما يشتهون، من أنواع الخيرات والكرامات ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل محبوبٍ ومطلوب ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الظفرُ الذي لا سعادة أكبرُ منه ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ المعتذرون الذين تخلّفوا عن الجهاد ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾ الشيوخ من المسنّين ﴿ٱلْمَرْضَىٰ﴾ العاجزين الذين لا يستطيعون الجهاد ﴿حَرَجٌ﴾ إثم وذنب في ترك الخروج ﴿إِذَا نَصَحُوا۟﴾ إذا أخلصوا الإيمان والعملَ الصالح، ولم يثبّطوا غيرهم عن الجهاد ﴿أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ نزلت في البكّائين، أرادوا الخروج مع الرسول ﷺ للغزو، ولم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ يبكون بغزارة أشدّ البكاء، لأنهم حُرموا فضلَ الخروج مع رسول الله ﷺ.

الجزء ١١ الحزب ٢١

سبب النزول: لمّا دعا الرسول ﷺ إلى الغزو، تهيأ المجاهدون، وجاء بعض الناس وكانوا فقراء لا يجدون راحلة، ولا يملكون مركباً، فقالوا: يا رسول، احملنا نغزُ معك، فقال لهم عليه السلام: «والله لا أجد ما أحملكم عليه» فتولّوا وهم يبكون، ففيهم نزلت ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ وقد اشتهروا باسم (البكّائين) رواه ابن مردويه عن ابن عباس.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ يعتذر إليكم المتخلّفون عن الجهاد ﴿رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من سفركم وجهادكم ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ لا تعتذروا بالمعاذير الكاذبة ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدّقكم في ما تقولون ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ﴾ أخبرنا الله عن ما في قلوبكم من المكر والنفاق ﴿انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ رجعتم إليهم من غزوتكم، ظافرين منتصرين ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لتكفّوا عن ذمّهم ومعاتبتهم ﴿رِجْسٌ﴾ كالقذر والنجس لخبث باطنهم ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ مسكنهم ومستقرّهم نار الجحيم ﴿الْأَعْرَابُ﴾ أهلُ البدو ﴿أَشَدُّ كُفْرًا﴾ أشدّ كفراً وأعظم نفاقاً من أهل الحضر، لقسوة قلوبهم ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أولى وأحرى بألّا يعلموا ﴿حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من الأحكام والشرائع ﴿مَغْرَمًا﴾ يعدُّ ما يتصدّق به، خسارةً ومغرماً يُثقل الكاهل ﴿الدَّوَائِرَ﴾ ينتظر بكم دوائر الزمان ومصائبه ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ دعاءٌ عليهم، كأنه يقول: أهلكهم الله وشتّت شملهم ﴿قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ﴾ ابتغاء مرضاة الله ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ دعاء الرسول واستغفاره لهم.

توضيح: نبّه تعالى أن المنافقين، يُقْدِمون على الحلف كذباً، دونَ وازعٍ من دينٍ أو ضمير، ليرضوا الخلْقَ دون حساب للخالق، حتى ولو أغضبوا الله بكذبهم، وأشدُّ هؤلاء سفهاً وجهالة (منافقو الأعراب) سكان البوادي، الذين ضمُّوا إلى النفاق، السَّفه والجهل وقلّة الفهم، فهم يعيشون كالأنعام، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، لجفائهم وقسوة قلوبهم، ولهذا جاء قولُ الحقّ عنهم: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ الآية.

وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ الأوائل الذين سبقوا إلى الهجرة والنُّصرة، وهم المهاجرون من مكة إلى المدينة، والذين ناصروهم وآووهم، وهم «الأنصار» الذين قاسموا المهاجرين أموالهم، وأسكنوهم ديارهم ﴿اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ سلكوا طريقهم، في الإخلاص والطاعة ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ نالوا رضوان الله، بخلاف المنافقين الذين غضب الله عليهم ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ من أطراف المدينة منافقون، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ ومن أهل المدينة منافقون أيضاً، يسكنون معكم ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ مهروا بالنفاق، وأقاموا واستمرُّوا عليه ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ في الدنيا بالقتل والأسر، وعند الموت بعذاب القبر ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ادعُ لهم واستغفر لهم ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ رحمة وطمأنينة لهم ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ يعني مؤخرون ليحكم الله في أمرهم. وهم الثلاثة الذين تخلَّفوا عن (غزوة تبوك) واقرأ قصتهم كاملة في صحيح البخاري.

ثناءُ الله على الصحابة: أثنى تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله جميعاً، المهاجرين منهم والأنصار، لصحبتهم لرسوله ﷺ، وتسابقهم لنصرة الإسلام، وقد سأل بعض التابعين (محمدَ ابنَ كعبٍ القُرَظي) فقال: ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ في ما كان بينهم من الفتن؟ فقال: إن الله تعالى قد غفر لهم جميعاً، وأوجب لجميعهم الجنة في كتابه العزيز، مُحسِنهم ومُسيئهم، فسأله في أيِّ موضعٍ؟ فقال: سبحانَ الله، ألا تقرأ قوله تعالى: ﴿السَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ الآية.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ
وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ
﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ
يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ
وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ
عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ
عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً
فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾
۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم
بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ
وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟
بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

﴿مسجداً ضراراً﴾ قريباً من مسجد قباء، مضارة للمؤمنين، ليصرفوا الناس عن «مسجد قباء» إليه، وقد اشتهر بمسجد الضرار ﴿وكفراً﴾ نصرةً للكفر الذي يخفونه في نفوسهم ﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾ ليفرّقوا جماعة المسلمين وتختلف كلمتهم ﴿وإرصاداً﴾ ترقباً وانتظاراً لقدوم عدوّ الله «أبي عامر الراهب» الذي قال لرسول الله: «لا أجد قوماً يقاتلونك إلّا قاتلتُك معهم» وهو الذي أمرهم ببناء مسجد الضرار ﴿لا تقم فيه أبداً﴾ لا تصلّ يا محمد فيه أبداً ﴿أسس على التقوى﴾ بُني على تقوى الله وهو «مسجد قباء» ﴿من أول يوم﴾ منذ أول يوم ابتدئ ببنائه ﴿أحقّ أن تقوم فيه﴾ أحقُّ بالصلاة فيه ﴿شفا جرف هار﴾ تمثيلٌ رائع بديع، أي هل من أقام بناءه على أساسٍ متين، من تقوى الله ورضوانه، خير أم من أقام البناء على طرف وادٍ سحيق، مشرف على السقوط؟ ﴿فانهار به﴾ فسقط به البناءُ في نار الجحيم، لعدم وجود أساس ﴿ريبة في قلوبهم﴾ شكاً ونفاقاً في قلوبهم، حتى تزهق الأرواح وتتقطع القلوب. **سبب النزول:** رُوي أن (أبا عامر الراهب) كان قد تنصَّر في الجاهلية، فلمَّا بُعِثَ رسولُ الله ﷺ أظهرَ له العداءَ، وكان رسولُ الله ﷺ يسميه (أبا عامر الفاسق) فلمَّا انتصر الرسولُ في حُنين، خرج عدوُّ الله إلى الشام، وأرسلَ إلى إخوانه المنافقين: ابنوا لي مسجداً، فإني ذاهبٌ إلى (قيصر) ملكِ الروم، فآتي بجنودٍ من الروم، وأُخرج محمداً وأصحابه، فبَنَوْا له مسجداً قريباً من مسجد قباء، وفيه نزل ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً﴾ الآيات، رواه الطبري.

الحزب ٢١

التَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

﴿التَّائِبُونَ﴾ الغُزاة المجاهدون في سبيل الله ﴿الرَّاكِعُونَ﴾ المصلُّون المتعبِّدون لله ﴿لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ المحافظون على أحكام الله، الذين لا ينتهكون المحارم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بجنات النعيم ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية نزلت في «أبي طالب» دخل الرسول ﷺ عليه وهو في مرض الموت فقال له: يا عمِّ قلْ «لا إله إلا الله» كلمةً أشهد لك بها عند الله!! وأخذ يكرِّرها عليه، فكان آخر ما قاله: هو على ملَّة عبد المطَّلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، ثم مات، فقال الرسول ﷺ: «لأستغفرنَّ له ما لم أُنه عن ذلك» فنزلت الآية والمعنى: لا ينبغي للنبيِّ والمؤمنين، أن يستغفروا للمشركين، ولو كانوا أقرب الناس إليهم، بعد أن ماتوا على الكفر ﴿لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ كثير التأوه والحزن، من فرط رحمته ورقة قلبه ﴿سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ غزوة تبوك، كانت شاقة وعسيرة لبعد مسافتها ﴿يَزِيغُ﴾ تميلُ للتخلف عن الجهاد، ﴿لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ ليس من عادته تعالى أن يقضي على قوم بالضلال، حتى يرسل لهم الرسل، ويبيِّنوا لهم الحلالَ والحرامَ، فإن خالفوا استحقُّوا العقوبة. كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

تنبيه: سميت غزوة تبوك (غزوة العسرة) لأنها كانت في شدة الحر، وقلة الزاد، وبُعْدِ المسافة. **روى الطبري** عن عمر رضي الله عنه قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى إن الرجل لينحر البعير، فيعصر فرْثه ـ كرشه ـ فيشربه!! فقال أبو بكر: يا رسول الله ادعُ الله لنا، فقد عوَّدك الله في الدعاء الخير! فدعا فسكبت السماء مياهها، فنظرنا فما وجدناها جاوزت العسكر.!) انظر تفسير ابن كثير.

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ
بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ
مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم
مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ
عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ
وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ
ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم
بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾
وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً
فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ
وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ وتاب عن الذين تخلّفوا عن الغزو «كعب، وهلال، ومُرارة» ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ ضاقت عليهم الأرض على سعتها، لمنع النبي ﷺ عن مكالمتهم ومجالستهم ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ بما اعتراها من الغمّ والهمّ ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ﴾ وأيقنوا أنه لا ملجأ لهم إلى الله، إلا بالرجوع والإنابة إليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ تاب تعالى عليهم بعد خمسين يوماً، ليستقيموا على توبتهم ويستمرُّوا عليها ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ﴾ ولا يترفّعوا بأنفسهم بأن يكرهوا لها ما يرضونه للرسول من الشدائد والمكاره

الجزء ١١

﴿ظَمَأٌ﴾ عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة في سبيل الله ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم﴾ كتب لهم به أجر عظيم ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ ولا يجتازون في غزوهم وادياً من الوديان ﴿لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ يخرجوا إلى الجهاد جميعاً، ويتركوا المدينة خالية، بل ينبغي أن تبقى جماعة، لتتفقّه في الدين، وجماعة تخرج للجهاد، فإذا رجعوا علّمهم إخوانهم ما اقتبسوه من الرسول ﷺ.

سبب النزول: لمّا شدّد الله النكير على المتخلّفين عن الجهاد، قال أصحابُ رسول الله: لا يتخلّف أحدٌ منّا بعد اليوم، فلمّا أرسل الرسولُ ﷺ السرايا إلى الكفار، نفَرَ المسلمون جميعاً إلى الغزو، وتركوا الرسول ﷺ وحدَه بالمدينة المنوّرة.

فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ الآية، تفسير ابن كثير.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾
وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾
سُورَةُ يُونُسَ

﴿يَلُونَكُم﴾ قاتلوا القريبين منكم من أعدائكم، لتطهّروا ما حولكم من رجس المشركين، وهذا تخطيطٌ حربيٌ رائع، لأنه لا يمكن قتال جميع الكفار في زمان واحد ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدّةً عليهم وشجاعةً أمامهم، حتى تُقلَّم أظفارُ الشرك ﴿مَّرَضٌ﴾ المنافقون الذين في قلوبهم نفاق وشك ﴿رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ زادتهم الآياتُ نفاقاً فوق نفاقهم، وكفراً فوق كفرهم، سمي الكفر رجساً لأنه أقبح الأمور ﴿يُفْتَنُونَ﴾ تُفضح سرائرهم كلّ سنة مرة أو مرتين ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ جاءكم رسول عظيم القدر، من جنسكم من العرب، يبلّغكم رسالة الله ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ صعبٌ وشاق عليه ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ ما يوقعكم في المكروه والمشقة ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ على إيمانكم وهدايتكم ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ يكفيني ربي في نصرتي على أعدائي، **قال ابن عباس**: لم يجمع اللّهُ بين اسمين من أسمائه، إلّا لمحمد خاتم الأنبياء ﷺ، سماه (الرءوف) (الرحيم). وهي من أسماء الله الحُسْنى.

تنبيه: أرشد تعالى بقوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ إلى الطريق الأصلح والأنجح في الحرب، وهو قتالُ الذين هم أقربُ إلى ديار المسلمين، بأن يبدأ بالأقرب فالأقرب، حتى يَصِلُوا إلى الأبعد فالأبعد، ولا يقاتلوا البعيد ويتركوا القريب، فقد يلتفُّ عليهم الأعداء وينقضُّوا عليهم، وهذه خطة حربية دقيقة أرشدهم إليها القرآن، والمراد بالغلظة في الآية: الشجاعةُ والبسالةُ، والصبرُ على القتال.